الأوذيسة

لهوميروس

بقلم الأستاذ دريني خشبة

خلاصة الفصل السابق

« شرع أوديسيوس يروى قصته للملك ألسكينوس ، فذكر كيف أقلعت سفائنه بعد إذ وضعت حرب طروادة أوزارها ، وكيف أرسلت فى مياه إزماروس ، وذكر ما كان من غزوته لهذه المدينة ونهبه لها ، وكيف كر أهلها عليهم فأوقعوا بهم ... وما كان من إبحاره ، ورسوه عند جزيرة اللوتوفاجى ، أكلة اللوتس ، وما كان من مشاركة بعض رجاله أهل الجزيرة فى أكل هذا اللوتس العجيب ونسيانهم بذلك أوطانهم ، وتفضيلهم الاقامة بين اللوتوفاجى ، حتى اضطر أن يذهب إليهم بنفسه ، ويرغمهم على العود إلى الأسطول مكبلين فى الأصفاد ... ثم روى ما حدث له بعد هذا فى أرض المردة — وكيف حبسهم السيكلوب فى كهفه ، وكيف كان يفتذى ويتعشى باثنين اثنين من رجاله ، وما دبروا له من قلع عينه بجذع الزيتونة المحمى فى النار ، وما كان من هربهم معلقين ببطون الكباش مفلتين من أذى السيكلوب ، وما كان من إغاظة أوديسيوس له وهو واقف ينشق منه فى سفينته فى عرض البحر ... وهو هنا يتم قصته ... »

أوديسيوس يروى قصته

ا — إيولوس وجعبة الرياح الأربع
ب — فى جزيرة الجبابرة
ج — غرام ســـيرس

« وبلغنا جزيرة الأيوليين حيث يحكم الملك إيولوس بن هيوتاس ، حبيب الآلهة . وهى جزيرة تلوح طافية فوق العباب بسورها النحاسى الهائل ، وأواذيها التى يتكسر فوقها الموج . ولقد زوج الملك أبناءه الستة من بناته الست ، وهو يقيم معهم فى قصره المنيف ، فى فىء وارف من حب الملكة ، فى بُلَهْنية ورَغد ، وعيش واسع مُخَفْرج ، ونعمى طائلة ، ولذائذ شتى . . . يقضون وقتهم فى لهو برىء ومرح ، ويأوون إذا أجنهم الليل إلى سرر موضوعة ، وزرابى مبثوثة . . . وأرائك من حرير

ولقد لقينا الملك بالبشر والايناس ، وأقمنا فى كنفه شهراً كاملاً ، ناعمين طاعمين ؛ ثم سألنى فقصصت عليه قصة (إليوم) وكيف سقطت فى أيدينا ، وما كان من إبحار أسطول الآخيين بعد ذلك ، وما تم من رحلتنا فى ذاك العباب ، عاشين ، ضاربين على غير هدى ... ثم إنى ضرعت إليه أن يعيدنى فى خفارته إلى بلادى ، فأجاب سُؤلى ، وأمدنى بكل ما ييسر رحلتى ، ثم تفضل فمشى معى إلى البحر ، حيث قدم إلى جعبة مصنوعة من جلد عجل كبير جسَدٍ ، خُيل إلى أنه ذبح فى سن التاسعة ، وهى جعبة من صنع جوف سيد الأولمب ، حبس فيها عظيم الآلهة رياح العالم أجمع ، وأحكم رباطها بسلك فضى متين ، حتى لا يفلت منها نفس واحد إلا باذن ... وانطلق الملك بعد أن أمر زفيروس — رب النسيم الحلو — فملأ شراعنا ،

وهب رخاء بين أيدينا ... وا أسفاه ! لقد كانت هباته اللطيفة الرَّخية عبثاً ، وضاعت فى غفلة رجالى ، سدى ! ! . . فلقد جرت بنا الفلك آمنة مطمئنة طوال تسعة أيام بلياليها ، ثم بدت لنا شطئان إيثا كا فخفقت قلوبنا فرحا ، واستطعت أنا نفسى أن ألمح مواطنىَّ الأعزاء يوقدون النار فى شعاف الجبال ... بَيد أنى كنت منهو كا موهونا من كثرة العمل ووعثاء السفر ، وطول السهر والمراقبة ، فداعبت عينى سِنةٌ من الكرى ، لأنى كنت أسهر على القيادة بنفسى طيلة الرحلة ، ولم أكن آمن أحداً من رجالى على الاضطلاع بها خشية الونى ، ومخافة التأخير ... وبينما كنت نائماً ، لعب الوسواس فى صدور رجالى ، زاعمين أنى أحمل أذخاراً من الذهب والفضة أسبغها علىَّ إيولوس الملك ... قال قائلهم : « يا للآلهة ! ! أبداً ما وطئت قدما أودسيوس بلاد قوم حتى تهالكوا عليه فرحين معجبين مُكبِرين ! وهو اليوم يعود من طروادة ومعه من طُرَفها وسلبها الجم الكثير . . . أما نحن فوا أسفاه علينا ! لقد شار كناه تلك الرحلة المشئومة ، وهانحن نرضى من الغنيمة بالأياب ، ونعود منها أصفار الأيدى ، لا أمامنا ولا وراءنا ! وها هو أيضاً قد فاز دوننا برفد ملك الرياح ، إيولوس العظيم ؛ هلموا يا رفاق ! البدار إلى هذه الجعبة ننظر ما احتوت من أصفر وأبيض ، وأعطيات وهبات ... ولهى ! » ، وأقبل بعضهم على بعض ، وامتدت أيديهم إلى الجعبة فحلوا رباطها ... وا حسرتاه ! لقد انطلقت الرياح الحبيسة ، وزمجرت العواصف الهوج من كل صوب ، وطفقت تكسحنا فى شدة وعنف ... بعيداً ... من إيثا كا ! ! ولقد قفزت من غفوتى خائفاً مذعوراً ... حتى لَخُيِّل لى أن طوفاناً قد غمرنا ! . . . وظللت برهة فى ذهول ودهش ، وطغت الأحزان على قلبى ، ورانت الهموم على نفسى ، ونت اليأس فى عضدى ... ولكننى لم أجد من الصبر بداً ؛ فتحملت الكارثة فى هدوء وصمت ، وعصبت رأسى بثوب شف ، وانبطحت فى قمرتى ... وراحت العواصف تدفع الأسطول فى غير هوادة ، حتى بلغ شطئان الأيوليين مرة أخرى ... وهنالك بكى صحبى ... ولات حين بكاء ! ! وهبطنا الشاطئ ، وكان عمنا أن نرتشف من ماء إيوليا العذب رشفات ، ثم جلسنا نعد أكلة عجلى ونلتهمها ؛ وتوجهت أنا وصديق إلى قصر الملك ثانية ... وقد كان يجلس لوليمة كبيرة هو والملكة الحسناء المصون ، وأبناؤه الغر الميامين ... ولشد ما بدهه أن يرانا بعد طول النأى فحدجنا وقال : « ويك أودسيوس فيم عدت أدراجك ؟ وأى سلطان مشئوم لوى عنانك بعد إذ أرسلناك مزوداً بخير زاد لتصل إلى بلادك ، وتلقى آلك ؟ أو أى آلٍ آخرين ؟ ! » ، وكان فؤادى ينخلع حين قلت أجيبه : « تبارك الملك ! لقد خانتى رجالى اللؤماء ، وخاننى معهم طائف من الكرى ! فاذا شاء الملك فليجبر ما انصدع منا ، وهو ما يزال صاحب الحوْل والطوْل ! » ... وهكذا شاءت المقادير أن أقف ضارعاً إلى هذا الملك مرة أخرى ... وقد تلبّث أبناؤه صامتين لا ينبسون ... وا كفهر وجه الملك وقال : « أيها الرجل انطلق ... إغرب عن جزيرتنا هذه يا أتعس الناس ! إنطلق فوالله إنى لأستغفر الآلهة أن أكرمت مثوى رجل مثلك عدو نفسه ، ممقوت من الأرباب ، مغضوب عليه من

السماء ! » . وهكذا طردنى الملك شر طردة ، فمضيت على وجهى ، ولقيت أصحابى ، وأبحرنا نذرع اليم المصطخب بمجاذيفنا ، ونسكب فى هذه الأعماق المضطربة قوانا ، لا أمل لنا فى الوصول إلى بلادنا ، ولا رجاء فى الخلاص من هذه البؤوس ! ووصلنا مدينة ليستريجونيا بعد نصب ستة أيام بلياليها ... تلك المدينة الموحشة التى بناها منالاموس العظيم . . . والتى (تغزو الحشرات عروجها نهاراً ، فيخرج الرعاة بقطعان الغنم ذات الفراء الكثة التى تحمى الحيوانات من ذبابة الماشية وتدفع عنها غائلتها ، فاذا جن الليل عادوا بأغنامهم إلى حظائرها ، وذهبوا بالنعم لترعى فى هدأة الليل ، ولتكون بمأمن من غوائل الذباب الذى يكون قد غلبه النعاس)[1] .. وصلنا الى هذه المدينة فألفيناها محصنة بصور عظيم من الحجر الصلد ، ينحدر قليلا قليلا الى الميناء ، بمضيق صغير لا تعلو فيه موجة ، لا يتحرك فيه الماء . . . وقد أدخل رجالى سفائنهم فى هذا البوغاز ، وآثرت أنا أن أظل بسفينتى عند فمه مما يلى البحر ، فألقيت مرساى ، وثبتها فى حجر كبير ، ثم وثبت الى الشاطئ ، وتسنمت ربوة عالية ، وأخذت أجيل ناظرى فى الجزيرة . . . ولم أقف لأنس أو حيوان على أثر ، وبدت الأرض جرداء بلقعا ؛ بيد أن دخاناً كثيفاً كان يصاعد من وسطها ؛ فرأيت أن أبعث باثنين من رجالى جعلت عليهم ثالثاً رئيساً ، ليعلموا لنا من أنباء الجزيرة ، وليتجسسوا أخبار أهلها ... وقد قص هؤلاء آثار العربات التى يستعملها السكان فى نقل الأخشاب من الغابة الى مدينتهم ؛ ولقوا عند مدخل المدينة فتاة عذراء تملأ جرتها من عين ماء هنالك ؛ فما كادوا يسألونها حتى علموا أنها ابنة الملك أنتيفاس ملك هذه البلدة . . . ومشت بين أيديهم حتى كانوا فى قصر الملك ، وهناك لقيتهم امرأة هولة عظيمة الجسم ، كأنها هضبة ، فلم يجسروا أن يمدوا إليها أبصارهم مما غشيهم من الفزع وكانت هذه هى الملكة ، التى صاحت عند ما لمحت رجالى ، بزوجها ، فأقبل يهتز وتتزلزل الأرض من تحته ، وما كاد يلمح هؤلاء الغرباء حتى أمسك بواحد منهم وخبط به الأرض فحطمه . . . كأنما أقبل ليخوض معمعة . . . ؛ وانطلق الآخران لا يلويان على شىء ؛ حتى بلغا سفائننا . . . ثم زجر الملك بصوت قاصف كالرعد يدعو إليه رعاياه ، فأقبلوا إليه من كل حدب ، مردة جبارين كالأغوال ، لا عدد لهم ، ولا تقع العين على أبشع منهم . . . ثم تهاوَوْا الى الشاطئ حيث أرست سفننا ، فجعلوا يقذفوننا بحجارة من سجيل ، جعلت رجالنا كمصف ما كول ء وجعلت مراكبنا حطاماً كان يهوى الى الأعماق ؛ بينما هؤلاء الجبارة ينشلون قتلانا بحرابهم ليعودوا بها الى بيوتهم فرائس سائغة يملأون بها بطونهم .. وهكذا استمرت هذه الذبحة الدامية .. وكنت واقفاً فى مركبى ، وجرازى الى جانبى ، فأسرعت الى حبل المرساة فقطعتها به ، وبادر رجالى الى مجاذيفهم فأعملوا فيها أيديهم . . . وبذلك نجونا من هذا الروع برغم الحجارة الهائلة التى كانت تتطاير فوق رؤوسنا وتتهاوى عن شمائلنا وعن أيماننا ، فتشيع فى فرائصنا خطر الموت . . وظللنا نكافح الموج ونصارعه ، فرحين بنجاتنا ؛ ومع ذلك ، فقد كانت تمتلج قلوبنا هما وأسى على إخواننا . . ثم رسونا آخر الأمر عند جزيرة إيايا ،

(١) كلام هومر هنا غامض شديد الغموض ولذلك اتكلنا فى إبانته على شرح مترجميه

حيث تقيم سيرس ، ربة الغناء والسحر ، ذات الشعر الكهرماني ، أخت إيتيس الحكيم من أبيها الشمس ، وأمها برس ابنة أوشيانوس [1] . وكأنما مشت عناية السماء بين أيدينا فرسونا في جون هادئ ساكن في غير جلبة ولا ضجيج ، ثم هبطنا الى الساحل فلبثنا فيه يومين كاملين نستجم ونستروح مما بنا من أين وجهد ، وكانا فرائس لذ في أضالعنا من شجو وهم وشجن . ثم إني تسلحت برمحي وسيفي وحثثت خطاي في أسناد الجبل حتى كنت في ذراه الشاهقة ، ووقفت ثمة أنظر وأتحسس ، فلمحت في البعد دخاناً يتصاعد بين الدوح والزهر من قصر سيرس . وبدا لي أن أتوجه إليه من فوري عسى أن أجد عنده خيراً . ولقد ترددت بعد ذلك كثيراً وكدت أعود أدراجي الى السفينة لأرسل نفراً من رجالي يكشفون لي الطريق الى القصر ؛ وما كدت أخطو خطوات حتى ساق إلى أحد الآلهة بظبي غرير شرد من المرج المعشب الحلو ليستق مما ألح به من ظمأ فأرسلت إليه رمحي فقصم ظهره ، وسقط يتخبط في دمه ؛ وقطعت شيئاً من عساليج الصفصاف وجدلت منها حبالا ، وأوثقت الغزال من أياطله واحتملته على ظهري ، ومشيت قدماً الى رفاق متوكئاً في كل خطوة على رمحي إذ لم تمد شيخوختي تستقيم لمثل هذا الحمل الكبير ! وهتفت برجالي في مرح وظرف : « هلموا يا رفاق فإن نقضي قبل أن تحين آجالنا ! ! هلموا الى ظبي فنيق وخمر عتيق ، واطرحوا ما بكم من هم وضيق . . » وأقبلوا فرحين وشمروا عن سواعدهم وهم يستهولون من جذل هذا القنص الغريض ، وظللنا يومنا هذا نطعم ونشرب حتى إذا أرخى الليل سدوله انكفأنا على الشاطئ نغط في سبات هادئ . . . وذرت أورورا ابنة الفجر الوردية فهتفت برجالي ، فهبوا ، ثم جلسنا ساعة نتشاور ، وأنا أقول لهم : « أيها الرفاق ! يا إخوان الشدائد ! ها نحن قد لصقنا بهذه الأرض ولسنا ندري أيان نذهب ؟ هل نشرق ، أم نغرب أم نظل هنا أبد الدهر ؟ ! ولكن هلموا ننظر لأنفسنا خلاصاً مما نحن فيه . . . فإني حينما تسنمت ذروة هذا الجبل أجلت الطرف في أرجاء هذه الأرض فعرفت أنها جزيرة تترامى الى مدى البصر ؛ ثم إني آنست دخاناً يعلو في الجو من وسطها ، ينبثق من سروات طوال فيها ، فروا لأنفسكم أثابكم الله ! » — وكأنما سقط في أيديهم ، وكأنما حاكت بهم ذكريات آنتيفاتاس وقومه اللاستريجون ؛ وما لقوا من هول السكلاب أكلة اللحم البشري ، فبكوا ساعة من الزمان ، ثم استرجعوا حيث لا يجدي البكاء . . ثم إني قسمتهم فريقين ، جعلت على أحدهما يوريلاخوس ، قرن الآلهة ، وجعلت نفسي على الفريق الآخر ، وجلسنا نقترع ، من يذهب لارتياد الجزيرة ، فوضعنا الرقاع في خوذتي ، ثم كانت القرعة على يوريلاخوس ، فمضى ، وتحت إمرته اثنان وعشرون من رفاقنا ، كانوا جميعاً يذرفون الدمع خوفاً وفزعاً مما وجهوا اليه ، وكنا نحن نبادلهم دمعاً بدمع وبكاء ببكاء . . . ووجدوا قصر سيرس في بطيحة [1] منخفضة ، فماذا رأوا ؟ ! قصر منيف ممرد تحدق به تماثيل حية من سباع وذؤبان سحرتها سيرس بعقاقيرها ذات القوى الخارقة الخفية . . . ولم تؤذهم تلك الوحوش ، بل كانت تثب على أرجلها الخلفية في ذل وتلطف ، ثم تبصبص بأذنابها كأنها كلاب السادة العظماء

(1) لم يتعرض شراح هومر لهذه الفقرة ولذا أثبتناها كما هي

(1) الأرض المتسعة

حينما تتملقهم فى وليمة من أجل لقيمات ... وصمقوا أول الأمر ؛ ثم انطلقوا حتى كانوا تلقاء باب الربة صاحبة المكان ... وتسمعوا ، فاذا سيرس تتغنى بصوتها المعجب المطرب وهى تعمل على نولها ، مشغولة بنسيج سابرى عبقرى عجيب ، ليس يقدر على مثله إلا الآلهة . وكان فى رجال الفريق أمير عظيم هو عندى أربطهم جأشاً فقال : « أتسمعون أيها الأصدقاء إلى هـذا الغناء الحلو تردده جنبات القصر ؟ إنه لا شك غناء ربة الدار التى تعمل على نولها ، ولست أدرى أربة خالدة هى ، أم من بنات حواء .. وعلى كل هلموا نهتف بها . » وتنادَوْا ، وأقبلت سـيرس فهشت لهم وبشت ، وأذنت لهم أن يدخلوا .. فدخلوا ، وآسفاه ، إلا يوريلوخوس فقد خشى أن تكون ثمة مكيدة أو أحبولة . ولقد قادتهم إلى بهو كبير صفت فيه عروش فخمة من ذهب ، ما كادوا يستقرون عليها حتى أقبل الساق بخمر وعسل ثم جىء بجبن وطعام آخر ، مخلوط بعقاقير سحرية تذهب وعى آكليها ، وتنسيهم ما سلف من أمورهم ، بل تسلبهم ذكريات أوطانهم ثم ضربت كلا بعصاها السحرية بعد إذ أكلوا وروَوْا ، واستاقتهم إلى حظائرها حيث مسخوا فـكانوا خنازير ، وإن أبقى السحر على ألبـابهم . أما طعامهم بعد هذا ، فقد كانوا يتناولونه من يدها مباشرة ، فكانت تطعمهم جوز البلوط والشاهبلوط والـكرز[1] الـكلابى . وما إلى هـذا وذاك من أكل الخنازير الخسيسة السائبة

وأقبـل يوريلوخوس ينتفض من الذعر ، وينعقد لسانه فـما يكاد يبين ، ثم هدأ روعه قليلاً فطفق يصعقنا بأنباء ما رأى : « أوديسيوس ياذا المجد ! لقد ذهبنا نتحسس كما أمرتنا ، ونرود هذا الوادى الأشب ، فوجدنا قصراً مشيداً فوق أكمة عالية ، وسـط بطيحة منخفضة ، ذا قبة سامقة جلست تحتها امرأة أو ربة — لا أدرى — وهى لانفتأ تعمل على منسج بخفة وصنعة ، وترسل ألحاناً حنوناً حلوة ؛ وما كادوا يهتفون بها حتى نهضت فلقيتهم بالبشر وفتحت لهم بابها على مصراعيه فدخلوا جميعاً — حاشاى — فقد أوجست خيفة ، ووقر فى قلبى أن ثمة شركا نوشـك أن نتردى فيه ؛ وقد راقبت رفاقى إذ هم جلوس لحظة غير قصيرة ، ثم هالنى ألا أراهم فجأة !! » وما كاد ينتهى حتى قفزت إلى سـيفى فتسلحت به وأخذت قوسى وسهاى ، وأمرته أن ينطلق بين يدى إلى حيث ذهبوا من قبل ولـكنه ركع أمامى وتعلق بساق وجعل يرجو ويلحف فى الرجاء ألا تذهب .. « فانك لن تفشل فى إعادة رفاقنا فقط ، بل قد تفشل فى أن تنجو بنفسك . فانطلق عن بقى منا ، ويا حبذا لو استطعنا الفرار ! » ولـكنى أجبته أن له أن يبقى هو يأكل ويشرب فى السفينة ، ويكون بنجوة مما فزع منه أما أنا ، فلم أر ضرورة لبقائى

وانطلقت لا ألوى على شىء ، ولـكنى قبل أن أبلغ البطيحة التى بها القصر ، لقينى هرمز الحبيب إلـه العصا السحرية . وكانت مخايل الصبا وبداوات الشباب تتدفق فى بردتيه ، وحمرة الورد تلتهب فى خديه ، لقينى فصافحنى متلطفاً وقال : « أيها التعس أيان تضطرب وحدك فى هذه الأرض وقد حبست سيرس من أرسلت من رجالك فى حظائرها بعد إذ سحرتهم إلى خنازير شقية ؟ هل أقبلت لتنجيهم ؟ أم جئت لتحتجزك معهم إلى الأبد ؟ ولـكن اصغ إلى ؛ إنى

(١) الـكريز : وجمعه الـكراز بالضم الأقط ، والمراد هنا فاكهة الـكريز

سأحبط ما فعلت ، وسأحميك وأحفظك . خُذ هذا المقار[1] ولا يهمك بعد أن تدخل قصر سيرس فانه ينقذك من كل خطر ... وهلم أعلمك ما عندها من السحر ، إنها ستمزج لك كأساً من الشراب بما عندها من رجس ، وستضع لك منه فى طعام تقدمه لك فكلْ وارْوَ ولا تبالِ ، فهذه البقلة العجيبة التى أعطيتك ستحبط كل ما تحيك لك فلا تقدر على مسْخِك كمن مسَخت من رفاقك ... فاذا عالجتك بعصاها السحرية فاهجم عليها بسيفك غير هياب ، وأرسل إليها شرر الغضب من عينيك فانها حينذاك تنقاد لك ، وتقودك إلى فراشها ، وتحتال عليك بصنعة الحب وتلطفات الهوى ، فاياك أن تنصاع لها حتى تعطيك موثقها أن تبطل ما أنزلت برفاقك من سحر وأن تترفق بك فلا تمسك بأذى ، واحذر ياصاح أن تدنس فضل خيرك بما ركب فى طبعها من شر . » وانحنى رسول الآلهة فالتقط عشبة من الأرض ثم وضعها فى يدى وأخذ يكشف لى أسرارها ويقفنى على قواها الخارقة . وذكر لى أن اسمها (مولى) ، وبه يدعونها فى السماء وأن الآلهة وحدهم يعرفون كيف يشفون بها رُقَى السحر ... وكانت جذورها سوداً حالكة السواد أما زهرتها فكانت بيضاء ناصعة البياض كاللبن . . وودعنى هرمز ، ثم رفّ ورفّ ، وعرج فى السماء . وانطلقت أنا أخبط فى ظلمات من هواجسى حتى كنت لدى باب ربة السحر التى وجدتها تعمل كما ذكر لى صاحبى على نولها . . . وصحت صيحة عالية ، فأقبلت تتهادى نحوى وفتحت مصاريع أبوابها ، ودعتنى ، فدلفت وراءها ، حتى كنا عند عرش عظيم ممرد فضى ، ذى درج ، فاستوبت عليه ، وذهبت هى فمزجت لى كأساً من الخمر بشىء من عقارها ، وقدمته لى فاحتسيته ، بيد أننى لم أتغير ولم أتحول عن صورتى ، فضربتنى بعصاها السحرية وهى تقول : « هلم إلى الحظيرة حيث تقر مع رفاقك » ولم تكد تصمت حتى وثبت من مقعدى وامتشقت سيفى ، وهجمت عليها ، وفى عينى جحيمان من نار الغضب ؛ فروّعت ربة السحر ، وزلزلت زلزالاً عظيما ، وجرت نحوى ، وركعت عند قدمى ، وتعلقت بساقى ، وأخذت تضرع إلى وتقول فى بيان رائع وكلمات باكية : « عمرك الله من أنت ومن أين قدمت وما ديارك ؟ تكلم ! أنت يا من لم تسحرك جرعتى الهائلة التى لم يذقها أحد وظل فى صورته لحظة واحدة ! ولكنك تحمل قلباً لا تجوز عليه نفثات السحر . . . ولكن هلم . . . تعال . . . إلىّ إلىّ أعرفك أحسن المعرفة . . . إنما أنت أوديسيوس الصناع ذو الذكر ، ولقد وصلت إلى هنا من اليوم يدورك فلم يشأ هرمز ذو العصا الذهبية أن يخبرنى بمجيئك ! ولكن اغمد سيفك ، وهلم ننعم بالعناق فوق فراشى الوثير كزوجين ، وليفرخ روعك وليهدأ بالك . . اطمئن يا أوديسيوس هلم ! » وصمتت لحظة ثم انطلقت أجيبها : « سيرس ! كيف تتصورين أن يفرخ روعى ويهدأ بالى وقد حبست فى رحابك رفاقى وشركاء رحلتى بعد إذ سحرتهم إلى خنازير أيتها الربة ؛ ثم تخشين إفلاتى فتخادعيننى وتبهرجين على بطلاسم الحب ، داعية إياى إلى فراشك لتشوبى صفاء فضيلتى برجس رذيلتك ... لا ...لا ، إنى لن أقاسمك هذا الفراش حتى تقاسمينى أغلظ الأقسام ألا تلحقى بى أذى ، وألا تحاولى الاضرار بى » وراحت تحلف وتؤكد الحلف ، وتقسم وتغلظ فى القسم ، ثم إنى انطرحت

(١) واحد العقاقير

فى سريرها الفخم الديباجى . وأقبلت أربع من عرائس البحر ، خطرن من اليم وأقبلن من العيون والحرج المجاور لينهضن بخدمتنا ؛ أما الأولى فقد أصلحت من سريرنا وطرحت عليه مطارف الخز ؛ وأما الثانية فقد صفت الموائد ورتبت الكراسى ، وجاءت الثالثة بزق عظيم من خمر طيبة ملأت بها الكؤوس الذهبية المنضدة فوق الموائد — أما الرابعة فقد أعدت لى حماماً ساخناً وضمختنى بأحسن الروائح والطيوب ، حتى انتعش جسمى الخائر ، وتأرجت روحى الفاترة ... ثم ألبستنى ثوبين غاليين من أندر الديباج ، ومشت بين يدى إلى عرش عظيم مزدان بأحسن التصاوير ، ومطعم بالذهب والفضة ، فاستويت عليه ، واضعاً قدمى على درج من لبلاد ناعم .... وأقبلت بعد ذلك عروس أخرى فصبت الماء على يدى من إبريق من ذهب ، فى طست من فضة ، وجاءت بمائدة حافلة بأشهى الآكال فوضعتها قدامى ، لكننى ما مددت إلى شىء من ذلك يدى ، لما كان يساورنى من الهم ، وما يشغل بالى من الانتقام ؛ فلما لحظت ذلك سيرس أقبلت تميس ، وأخذت تلاطفنى وتقول : « ما لك تجلس ساكتاً هكذا يا أوديسيوس كالذى غشى عليه ما تكاد تمتد يدك إلى شىء ، كأن ألف وسواس يخامرك ؟ أما تزال تخشى مكيدة فتخاف أن تتردى فيها ؟! ألا ما أكبر غفلتك يا صاح ، إطمئن ، فلقد أعطيتك موثقى وحلفت لك بأغلظ الايمان ! » وأجبتها قائلاً : « كيف تمتد يدى إلى طعام أو شراب ورفاقى ما يزالون فى إسار سحرك ؟ أبداً لن أذوق شيئاً حتى تردهم إلى صورهم ، ثم ألتقى بهم » ونهضت تحمل عصاها السحرية ، وذهبت من فورها إلى الحظائر حيث أطلقت رفاقى ، وكانوا ما يزالون فى صور الخنازير ، ثم جاءت بترياق فمسحتهم به ، فعادوا إلى صورهم البشرية ، وبدوا فى أنضر شباب وأصباه ، ثم أقبلوا نحوى يلثمون يدى ، ودموع الفرح تبلل مآقيهم ، وطفقوا يصيحون ويصخبون وتردد أصداءهم جنبات القصر ، حتى تأثرت سيرس نفسها مما رأت ، وراحت تقول : « يا ابن ليرتيس الصناع ، هلم إلى مركبك فاشدها فوق البر لتكون بمأمن من غوائل البحر ، ثم خبىء كنوزك وأذخارك فى غيران هذه الجبال ، وعد إلى فى جميع رفاقك » وطربت لهذه الفكرة فهرولت إلى الشاطىء حيث لقيت رفاقى الآخرين ينتدبوننا ويذرفون دموعهم علينا . وما إن رأونى حتى أهرعوا نحوى يرقصون ويطربون ويحيون كهذه البهم التى تعود فى المساء إلى حظائرها فتتلقاها صغارها بالثغاء والرغاء والضوضاء . وهكذا تلقانى أولئك الرفاق . وبدت دموع أحزانهم بعبرات المسرة ، وخيل لهم أنهم رأوا فى وطنهم النائى المحبوب إيثاكا ، حيث ولدوا وحيث نشأوا وترعرعوا . . . قال قائلهم : « تالله لكأنا رأينا فيك أوطاننا يا أوديسيوس ، وتالله لقد طفرت قلوبنا حين عدت إلينا فعادت أرواحنا إلى أبدانها . حدثنا أيها العزيز كيف هلك إخواننا فى هذا التيه » . وقلت لهم : « هلموا أولاً نجر مركبنا على هذا الشاطىء الهادىء المطمئن ولنخبىء أذخارنا وسلاحنا فى غيران هذه الجبال ، ولننطلق جميعاً إلى سيرس حيث ترون جميع رفاقكم فى أمنة وعز وطعام وشراب ، ونعيم مقيم » . وصدعوا بما أمرتهم إلا يوريلوخوس ، فقد سمر مكانه ، وكأنه لم يحفل بما أخبرت به ، ثم حرك شفتيه فقال : « ويح لنا نحن الأشقياء البائسين ! فيم ذهابنا نحن الآخرين الى قصر سيرس ، وقد تمسخنا جميعاً الى سباع أو ذؤبان أو خنازير ، ونظل الى الأبد نحرس عرينها مرغمين ؟ لقد ذهب كثيرون منا ضحية هوس

أوديسيوس وقلة بصره ، يوم حبسنا المسيكلوب من أجل أطماع رئيسنا الطيش[1] ! » وأوشكت أضرب رأسه بجرازى ، فيخر الى الأرض برغم ما يربطنى به من آصرة الوطن ووشيجة الغربة ، لولا أن هب رجالى الآخرون يصرخون ويقولون : « أوديسيوس الكريم ! لنتركه هنا ليحرس فلكنا ، أما نحن فراحلون معك الى قصر سيرس ، ولو كان مِلْؤه الفزع الأكبر ! » وتدفقوا من السفينة على الشاطئ ، وانخرط بوريلوخوس بينهم منصاعاً لنظراتى المتأججة . . . أما ما كان من سيرس حينذاك ، فانها أدخلت رفاقى الى حمّاماتها ثم ضمختهم بأحسن الطيوب ، وخلعت عليهم أفخر الملابس ؛ ولما وصلنا وجدناهم يطعمون ، فما إن رأونا حتى هبوا يعانقون صحابهم ويبكون ، ثم جلسوا يستمعون الى قصة ما حل باخوانهم ، وهم يصدون زفرات الحزن ، ترددها قباب القصر . ونهضت سيرس فوجهت الى الخطاب إذ تقول : « ابن ليرتيس العزيز هون عليك ، وليرفه رجالك عن أنفسهم ، ولا يستسلموا هكذا لنوبة الحزن ، ولترقأ دموعهم جميعاً . . . إنى لا أجهل ما تجشموا من أهوال فى ذاك البحر المضطرب ، وما لقوا من فوادح فى كل أرض ، بما كتب لهم فى لوح القضاء . . . ولكن ، تعالوا جميعاً . . . أنعشوا نفوسكم الخالدة بكؤوس الراح ، ولتستشعروا بأسكم الذى كنتم تستشعرونه يوم غادرتم شطئان إيثا كا العزيزة . . إنكم إن لم تتناسوا آلامكم فانها تفت فى عضدكم وتوهى من قوتكم وتكون أبداً حلفاً لكم وإلباً عليكم ، ولا تعودون تشعرون معها بلذة العيش وبهجة الحياة ! » ، ووقعت كلماتها فى قلوبنا فأقبلنا على الطعام والمدام ؛ ثم إننا أقمنا عندها عاماً بأكمله فى أرغد عيش وأحسن حال ، متقلبين فى أرفه نعيم ؛ ثم استدار الزمان ، وهتف بنا قانون الأزل ، فدعانى رجالى إلى جلسة خارج القصر فقالوا لى : « تذكر يا مولانا وطننا الأول ، فاننا نحن إليه ، ونتمنى لو ساقتنا المقادير إلى شطئانه » ، وكأنما نبهوا منى غافلاً ، فتابعنا يومنا هذا على مائدة ربة السحر فى بلهنية وعيش مخفرج وخمر ، وأقبل الليل فأوى كل إلى فراشه ، وأويت أنا إلى سيرس فداعبتها ولاطفتها ، ثم قلت لها فى رجاء وظرف : « سيرس يا ربة ! حيثما لو وفيت بعهدك فأرسلتنا فوق هذا البحر رحمةً بنا ، لنقضى حاجات الوطن ، ولتنقطع شكاوى صحابى التى مزقت نياط قلبى » . وقالت سيرس : « أوديسيوس العزيز ، المعروف بأصالة الرأى ورجاحة الفكر ، إنى لن أقرك على البقاء هنا ، لا أنت ، ولا أحداً من رفاقك ، ولكنك قبل أن تفكر فى شد رحالك إلى بلادك ينبغى أن تذهب فى رحلة شاقة بعيدة المدى ... إلى هيدز[1] . . . دار پلوتو[2] وبرسفونيه . . . حيث تلقى النبى الصدّيق الصالح تيرزياس ، الذى احتفظ وحده فى عالم الموتى بكل أسراره وقواه الغيبية الخارقة ، والذى يثوى فى رحاب مليكة الفناء يتنبأ لها وتستوحيه وتستشيره فيعرّف[3] لك عما يهمك ويقفك على ما ينطوى لك من صحف الغيب » وما كادت تنتهى حتى احلولكت الدنيا فى عينى وتدفقت الهموم فى نفسى ، وأجهشت وأجهشت ، ثم استخرطت فى بكاء طويل . وما كدت أصحو من هذه النوبة حتى قلت لها : « أنى لى يا ربة أن أذهب الى هيدز ؟ ومنذا الذى

(١) الطائش

(١) الدار الآخرة
(٢) إله الموتى وزوجه
(٣) يتكهن — من العرافة بالكسر

يحدونى اليها ، ولم يسبقنى اليها أحد من أحياء البشر ؟ » فقالت تجيبنى : يا سليل ليرتيس العظيم ليفرخ روعك ، ولا يحزنك ألا يكون لك الى هيدز من دليل . بل هلم الى سفينتك فأصلح قلاعها ونشر شراعها وستهب الصَّبا سَجْسَجاً فتُدَهْدِيكم رويدا ، فاذا جزتم هذا البحر المحيط ، وبلغتم الشاطئ النز(١) الذى تنمو فوقه أشجار الحور والصفصاف الباسقة ، ثمة باسم پرسفونيه ، فادفعوا إليه بسفينتكم ثم تهاوَوْا الى مثوى پلوتو السحيق الذى يبتدئ عند الصخرة الهائلة التى تتكسر فوق أواذيها أمواه أشيرون وستيكس وكوكيتوس فاركوا سفينتكم ثمة ، واحفروا عندها حفرة ذراعا فى ذراع ، ثم صبوا فى جهتها الأولى قربانا من لبن وعسل ، وفى الثانية خمرا معتقة من أحسن ما تعصرون ، وفى الثالثة ماء قراحا ، فاذا كانت الرابعة فانثروا الدقيق فوق الجميع ، واصنعوا ذلك باسم الموتى جميعا ، ثم انذروا لهم أن تذبحوا — يوم تعودون الى إيثاكا سالمين — عجلاً جيدا من أحسن قطعانكم : وانذروا كذلك لتيرزياس كبشا سموريا ليس فى أغنامكم أسمن منه ولا أقوى جلادا فاذا فرغتم من صلاتكم ونذوركم وأدعيتكم لجميع الموتى من كل الأمم ، فاذبحوا فى الحال كبشا ونعجة سمورية ، على أن تكون رأسا الضحيتين تلقاء إربوس وعلى أن تشيحوا بوجوهكم تلقاء الشاطئ فاذا صنعتم كل هذا فسرعان ما ترون أرواح الموتى تقبل نحوكم من كل فج ، فسارعوا الى ذبائحكم فاسلخوها وألقوا بلحومها فى النار مصلين ملبين داعين كيما تهدأ نفسا پلوتو وزوجته پرسفونيه ، ولا تسمحوا لأرواح الموتى أن تقرب أضحياتكم ، وذودوهم عنها بأسيافكم حتى تلمحوا تيرزياس قادما فليقا كم ويحدثكم ويوضح لكم ما غم عليكم من سبيلكم فى هذا البحر ارجراج المتلاطم بالأمواج »

وسكتت ، وانبلج الصبح ، فنهضت تصلح من أثوابها وتضفى عليها من شفوفها البيض كالندف ، وتنثر فوق رأسها تلك الغلالة الرقيقة كالثلج . أما أنا فنهضت كذلك ، واكتسيت صدارى ودثارى ثم توجهت الى رفاق فأيقظتهم وحثثتهم على الابحار من توّنا كما رسمت سيرس . وقد هبوا جميعا إلا فتى يافعا لم يكن له يدان فى هذه الشدائد ، بل كان كل همه فى كأس من خمر يتطارح بمدها وهو لا يعى شيئا . وكان اسمه البنور ، وكان قد غرق فى سبات عميق فوق سطح القصر وقد أفزعه ماسمع من جلجلة أسلحتنا فهب من نومه مخمورا متخاذلاً وساقته قدماه الى حافة السطح فزلت قدماه ، وسقط إلى الأرض ، ودق عنقه ، فسبقت روحه الى هيدز . وقلت لأصحابى لما اكتمل جمعهم : أتظنون أنا مبحرون الى أوطاننا ! ! كلا يا رفاق ! فأمامنا رحلة طويلة شاقة الى هيدز ، حيث ينبغى أن نلق تيرزياس النبى الصالح ليُعَرّف لنا ويقفنا على صفحة مما يطوى لنا الغيب ، بهذا رسمت سيرس ، وإنا لنصيحتها لسامعون ! » ، وخفقت قلوب إخوانى ، ونظر بعضهم إلى بعض ، ثم جلسوا يشدون شعورهم من الحسرة ، ولكنهم صدعوا أخيراً ، بعد إذ أيقنوا أن لا شىء غير هذا ينفعهم . وانقلبنا إلى البحر ، وكانوا مايزالون يذرفون دموعهم ويصعدون حسراتهم . . . وفيما نحن ذاهبون ، كانت سيرس تسوق إلى السفينة كبشاً عظيماً ونعجةً سمّورية ... وإن كنا لم نرها قط ، ومنذا الذى تستطيع عيناه أن تريا ربة كريمة رائحة أو جائية إن لم تشأ هى أن تكشف نفسها ؟ »

(يتبع) دريني خشبة

(١) الذى ينز الماء مصدر استعمل صفة oozy